الاطمئنان ورمال الفكر المتحركة

ميثاق طالب كاظم الظالمي

سلسلة ورقة بحث (١٧)

الاطمئنان

ورمال الفكر المتحركة

ميثاق طالب كاظم الظالمي

إنّ البحث عن الطمأنينة لإدراك المعرفة يواجه مشكلة مهمة لا أرى أنه من السهولة تجاوزها وهي إن أي خطوة نقدية قد تتسم بشيء من العدائية اتجاه الاطمئنان فإنها ستعود بالنتيجة النهائية على صاحبها بالضرر .

إذ أن أي محاولة لنفي الاطمئنان النفسي كطريق للمعرفة البشرية سيكون ذلك الطريق أو الدليل المُقدم من قبل النافي لها محتاجاً الى ما نفاه (أي الطمأنينة) إذ أن عدم حاجته إليها يعني عدم استقرار دليله الذي أقامه لنفيها أما حاجته إليها فهو تثبيت لها وعدم زعزعة لوجودها ، وكأن الاطمئنان النفسي اتجاه المعرفة يمتلك تقنيته الذاتية وسلاحه السري الذي لا يمكن قهره ـ ذلك السلاح المُتمثل بالتلاصق الهائل بين تفكيري وبين الطمأنينة . فلكي أنتقل من أي مرحلة فكرية مهما كانت صغيرة الى مرحلة أخرى وبخطوة انتقالية مهما كانت صغيرة أجد بحسب تفكيري أني لا أستطيع الانتقال حتى أطمئن من تلك الخطوة الفكرية السابقة التي دعتني الى تحقيق الخطوة اللاحقة وإلا فلا معنى لعدم الاطمئنان في الأولى للانتقال إلى الثانية ، أما الفكر المُتسامح في خطواته الانتقالية فهو فكر مخالف لنفسه للوصول الى غاية المعرفة إذ لا معنى أن يكون الباحث عن المعرفة متنقلاً في خطواته العلمية وهو يعلم بخطأ بعضها.

اللطيف في البحث عن الاطمئنان في تحصيل المعرفة أن الباحث يجد نفسه أسيراً له محاطاً به ، فأنا حين أبدأ بالبحث عن الاطمئنان لتحصيل

المعرفة لابد أن اطمئن لوجود الورقة والقلم ابتداءً وإلاّ فإن عدمهما لا يتيح لي معرفياً أن أبدأ الكتابة بل إني أحتاج أن أطمئن من وجودي أولاً ، فإنّ عدمَه عدمٌ لها .

إذن كيف سأبدأ بإثبات أنّ الاطمئنان طريق للمعرفة من دون الحاجة الى الاطمئنان أو الانطلاق منه أصلا ؟

إن أي حركة فكرية خاطئة في التعامل مع الاطمئنان وتصنيفه كأمر يمكن الاستغناء عنه قد تجعلنا أمام سفسطة فارغة لا قيمة لها ، الاطمئنان موجود في حياتنا نتعامل معه بشكل واسع جداً ، نبني كثيراً من قراراتنا على أساسه ونتعامل مع الناس ، نتحاور ونتقاطع ونتخاصم ، يقتل بعضنا بعضاً ويُحب بعضنا بعضاً ونحلل الأشياء ونصل إلى نتائج بعد تحليلها ، نحدد اتجاهاتنا الدينية والعبادية ، ندخل بعض الناس إلى دائرة الرضا القدري ونخرج بعضهم ، نضع النظريات ونفندها ، نرسم لوحة نكتب شعراً نروي قصة ونسرح شعرنا ونجمل وجوهنا ...الخ ، كل هذه السلوكيات تنطلق من اطمئنان بشيء ما يخصها متكيّف بكيفياتها .

إذن الاطمئنان أمر يفرض وجوده علينا ولولاه لما استطعنا أن نتحرك على كافة المستويات النظرية الفكرية أو العملية السلوكية .

كيف سأستطيع أن أثبت أو أنفي توقف المعرفة على الطمأنينة من دون الاعتماد عليها ؟

إلى الآن لا أستطيع إثبات ذلك من دون أن أقبل بسلسلة طويلة من الاطمئنانات التي تبدأ من وجودي وتحققي لتنتهي إلى الأفكار التي أكتبها فكل هذا يحتاج الى معرفة واطمئنان بتلك المعرفة ، ما الحيلة الفكرية التي عليَّ استعمالها كي أكمل بحثي عن الطمأنينة من دون التسليم بها أو اعتبار بديهيتها ؟ أنا لا املك إلاّ تفكيري والطمأنينة ملازمة بشدة لتفكيري كما ذكرت ولا يمكن لأي خطوة تفكيرية أن تتسلسل عندي من دون وجود حالة طمأنينة لكل خطوة منها وإلاّ فإنها لن تتسلسل ولا تتولد قوة في تسلسلها ، إن هذه الفكرة التي ذكرتها الآن بحاجة الى طمأنينة ولا بد لها أن تكون مستقرة في النفس كي استطيع أن أبني عليها خطواتي الفكرية الأخرى كما أن استنتاجي بثبات هذه الخطوات هو أيضاً بحاجة لها (أي الطمانينة) ولولاها لما استطعت أن أثبت خطواتي الفكرية التي أعدها الآن للكتابة ، إذ أنّ استنتاجي بضرورة استقرار الخطوات الفكرية هو أيضاً بذاته حالة تحتاج إلى طمأنينة كما أن ذكري للاحتياج وضرورة وجوده هو بدوره يستبطن طمأنينة ، وهذا الأخير الذي ذكرته يحتاجها وهكذا ، وحتى الـ(هكذا) التي ذكرتها الآن وحتى ما أذكره الآن لابد له أن يكون مستقراً ، وهذه اللابدية هي كذلك أيضاً .

لأتوقف إلى هنا بعد أن صارت الأمور واضحة للقارئ ولا تُتَحَمَّل في نفس الوقت .

من الطبيعي أن يكون جواب المدرسة العقلية الكلاسيكية مستنداً إلى بطلان التسلسل الذي يذكرونه بكثرة في مباحثهم العقلية ، إلا أنني بحسب تفكيري لا أستسيغ هذا النوع من الحلول الفكرية التي تبتني في داخلها على إيجاد حالة تأسيسية آخذة لصورة علمية ظاهراً لكنها في داخلها تبتني على عجز في إيجاد حل مقنع أو تبتني على حالة انهزامية من أصل الموضوع .

لقد ناقشت في كتابات قديمة بشيء من المناقشة التسلسل الفكري المؤدي الى نتيجة بطلانه ، وما يقصدونه ـ بحسب فهمي لهم من بطلانه ـ هو الاستمرار إلى ما لا نهاية من دون الاستقرار على نقطة محددة بذاتها والركون إلى نقطة انطلاق أساسية ، والذي أفهمه من هذا المستوى من العرض الفكري هو أنّ التسلسل يعتمد على حسم موضوع مسبق وهو المالانهاية (التي ستكون موضوعا للبحث في المستقبل القريب) وعدم قبولهم باستمرار التسلسل وبطلانه يتضمن قبولهم بعدم وجود شيء اسمه المالانهاية في الاشياء ، وإلاّ لما حسموا الأمر ببطلانه ولتركوا الأمر يستمر ولو من الناحية الفكرية للاستمرار .

فهمي لبطلان التسلسل عندهم يرجع إلى بطلان المالانهاية وهو أمر لم يثبت علمياً ، والدراسات في المالانهاية لا تزال قائمة وقد تولت الرياضيات دراسة هذا المفهوم منذ القرن الخامس عشر وإلى يومنا هذا واعتبروا أنّ المالانهاية هي نتيجة غاية دالة رياضية كسرية يقترب مقامها من الصفر .

وأنا لست بصدد محاكمة الفكر بالرياضيات بقدر ما أنا بصدد محاكمة نفس الفكر الذي يحسم النتائج من دون التحقق منها وإلاّ فإنّ نفس المعلومات المقدمة من قبل الرياضيات تستند في أصولها الى فلسفة فكرية متعلقة بفهم الأعداد وفهم الصفر وفهم الاقتراب والغاية وفهم الدالة الكسرية التي ليست سوى أفكار تم صياغتها بأسلوب المنطق الرمزي وإدخالها تحت وطأة الصرامة العقلية لتنتج بعض الأمور من المنطق الرمزي لا مجال لذكرها هنا ، كما أنّ نفس عملية التسلسل هي متوقفة على الاطمئنان ببطلان اللانهاية ، وإلاّ لولا الاطمئنان ببطلان التسلسل لم يثبت بطلان التسلسل بالاطمئنان ، كما أن اللانهائية صُنفت ابتداءً من حيث يشعر أو لا يشعر من صنفها على أنها لانهائيات عددية ترجع إلى بطلان الاستمرار في العدد إلى ما لا نهاية لكن بحسب تفكيري نحتاج أن نصنّف نوع المتسلسل أنه من أي نوع من اللانهايات .

توجد مقولة قديمة أنّ اللانهاية في العالم المادي غير متحققة ابتداءً ، ربما بعض الدراسات في الفيزياء الحديثة تبطل هذا الادعاء ، وقبل الدخول في أشياء من هذا القبيل لنرى أنّ تجسيد اللانهاية في العالم المادي لا يمكن تصوره بالطريقة الرياضية ليعطي نتيجة مرضية من الناحية العملية مع الحفاظ على المفهوم الرياضي لمشكلة اللانهاية ، ولقد ذكروا لذلك تصوراً لحالة افتراضية في سباق تخيلي لسلحفاة مع أرنب ولأن الأرنب مطمئن من

الفوز فقد ترك مسافة (١٠ متر) للسلحفاة متقدمة عليه من نقطة الانطلاق الأولى ، ورياضياً ينظر إلى مفهوم المالانهاية ـ وفق هذا المثال ـ بمنظارين :

الأول : أنّ الأرنب لا يستطيع أن يلحق بالسلحفاة أبداً لأن المسافة التي ستقطعها السلحفاة هي (١٠ متر) مضافاً اليها كمية غير مُعروفة من المسافة فعلى الأرنب أن يقطع الـ (١٠ أمتار) مضافاً إليها ما قطعته السلحفاة ولأن السلحفاة قد قطعت الـ (١٠ امتار) مع المسافة الأولى غير المعروفة فإنها ستكون في هذه اللحظة قد قطعت مسافة أخرى يحتاج أن يقطعها الأرنب أيضاً وعندها تكون السلحفاة قد قطعت مسافة أخرى ... وهكذا لن يستطيع الأرنب أن يلحق بالسلحفاة .

الثاني : أنّ المسافة التي قطعتها السلحفاة ابتداءً كانت هي (١٠ امتار) ثم أضيف إليها المسافة التي قطعتها بعد بداية الانطلاق ، وهنا احتجنا أن نضيف شيئاً لا تستطيع الرياضيات إضافته وهي ماهية السلحفاة وماهية السرعة التي تقطعها السلحفاة وهي حوالي (٠,١ متر في وحدة زمنية معينة) ـ على سبيل الفرض ـ وهي مسافة صغيرة بالنسبة للأرنب الذي سيتجاوزها ، ولو استمررنا بجمع المسافات التي تقطعها السلحفاة في كل مرة فإنّ المجموع الكلي النهائي الذي قطعته السلحفاة هو (١٠متر) مضافاً اليها أجزاء بسيطة من المتر .

أن هذه المسألة تجعلنا أمام مفارقة اللانهاية من الناحية الفعلية في العالم المادي واللانهاية في العالم الفكري الرياضي البحت الخالي من إدخال واقعية بعض الأشياء في المفهوم الرياضي ، وهذا بحد ذاته يجعلنا أمام رؤية مختلفة للّانهاية الرياضية البحتة عن غيرها من مفهوم اللانهاية المادية الخارجية للأشياء .

وبالتالي فإن إدخال التسلسل في الاطمئنان المعرفي الى زمرة اللانهاية أعتقد ـ وبحسب تفكيري ـ أنه يتطلب تعريفاً للاطمئنان كي يتم تصنيفه ضمن أي اتجاه معرفي من اللانهاية ، هذا بعد فرض أن التسلسل المنطقي الباطل يرجع في تحليله الى اللانهاية وهو بحث مستقل لم أعطف البحث عليه وفرضت أن التسلسل المستخدم في الاستدلالات العلمية يتطلب دراسة فكرية أكثر تقارباً مع غيرها وهو أكثر أمانة ـ بحسب فهمي ـ من قبوله هكذا على عيوبه وأقصد بعيوبه هو اعتبار بديهيته وأنه ثابت هكذا بالبداهة .

إنّ ميكانيكا الكم التي تتعامل مع الجسيم على أنه دالة موجة ـ بعكس الميكانيك الكلاسيكي الذي يتعامل مع الجسيم كجسم ـ احتاجت إلى وصف التوافق الكمومي لذلك الجُسيم من خلال الهزاز التوافقي الذي يعتبر مهماً في وصف حركة الجسيمات كالإلكترون والنواة الذرية وكذلك في حساب حالة الترابط بين الذرات ، وتتطلب نظرية الكم أن تكون

مستويات الطاقة التي يمكن أن يمتلكها جُسيم في جهد يؤثر عليه أن تكون حلول معادلة شرودنجر لها قابلية التنسيب للواحد ، وحتى يتم الحصول على هذه النتيجة يجب أن يكون الجسيم موجوداً أينما كان بين ما لا نهاية إلى ما لا نهاية بحسب نتائج الحلول الرياضية لمعادلة شرودنجر ، فمفهوم اللانهاية المادي الذي شكَّكَت الفلسفة بوجوده تتعامل معه الفيزياء الحديثة على أنه ضروري التحقق في تواجد الجسيم ، وبالتالي فإن جدلية إمكانية تحقق اللانهاية المادية لا تزال قائمة ـ بحسب فهمي ـ بين الفلسفة والفيزياء الحديثة .

وما وقعت فيه الفيزياء الحديثة من مشكلة اتجاه النظرة الفلسفية يرجع الى فلسفة تَبَنّتْها وهي ترجع إلى أساسياتها وقبولها بتحويل الظواهر الطبيعية التي تشاهدها حسيّاً إلى قوانين وصياغات فيزيائية سلَّمتها بشكل كامل إلى الرياضيات لافتراض حلول لها اعتماداً على فلسفتها (اي فلسفة الرياضيات) والتي بدورها تتعامل مع الاشياء بالعلاقات البحتة التي ذكرنا قبل قليل المشاكل الناتجة عنها بعد غض النظر عن ماهيات الأشياء كما في مسألة السلحفاة والارنب .

وبالتالي فإن خلافات الفيزياء الحديثة مع الفلسفة في وجود أو عدم وجود اللانهاية المادية يرجع الى خلاف (فلسفي ـ فلسفي) إذ لا تمثل الرياضيات الفيزيائية إلاّ فلسفة خاصة في مقابل فلسفة أخرى ، إذ أن

تحصيل قيمة الـ (١) في حلول معادلة شرودنجر في الهزاز التوافقي لمستويات الطاقة كان لابد أن يكون رياضياً وفقاً لتكامل دالة معينة مفترضاً لتواجد جُسيم في المالانهاية الى المالانهاية وهو أمر مفترض رياضياً بطريقة بحتة أخذته الفيزياء الحديثة (نظرية الكم) جاهزاً لتحصيل حل للموضوع المذكور .

فكل ما حصلنا عليه إلى الآن هو أن المالانهاية المادية لم يحسم أمرها ، وهل أنها متحققة مادياً فعلاً أم أنها ليست كذلك ؟ إذ كل ما نحصل عليه في النهاية تقاطع رأيين فلسفيين في افتراض المالانهاية المادية أو عدم افتراضها مع اختلاف أدوات كل منهما في علاقته مع الفكر ، وبذلك فإنّ التسلسل عموماً على فرض رجوعه إلى المالانهاية تحليلياً نحتاج إلى إدخاله في صنف من المالانهاية سواء كانت العددية أم المادية الخارجية التي لا يمكن في تصوري إثباتها أو نفيها بعد معرفة رجوع الفيزياء الحديثة إلى القوة الرياضية في وصف مكنونات العوالم الدقائقية الذرية والتي بدورها ترجع إلى فلسفة خاصة عليها ما عليها من الاستفهامات والجدليات في مواضع شتى ربما كانت المالانهاية من أهمها في إثارة تلك الجدليات ، وبذلك فإنّ تسلسل الاطمئنان المذكور في البحث لا يمكن إثبات بطلانه بمجرد عرضه على التسلسل المذكور ، لذلك فإن مشكلة التسلسل بالاطمئنان التي تم

عرضها في بداية البحث لا تزال قائمة ولم تحل هذه المشكلة بعدُ إلى الآن ضمن تسلسل الافكار في هذه الورقة .

إن كل ما ذكر بخصوص النظام الرُتَبي المعرفي للاطمئنان وجعله مرحلة بعدية لمرحلة التصورات التي ترد إلى الذهن والتي تستقر بالنهاية على نوع معين من المعرفة باستعمال طرق معرفية حسية أو حدسية أو بتقديم الراجح على المرجوح بأحد الطرق المذكورة ، كل هذا لا يمثل شيئاً ذا معنى في فهم الاطمئنان وأنه لماذا صار طريقاً وأداة للمعرفة البشرية إذا كان كل ما ذكروه ليس سوى وصف للحالة بعد وقوعها ومحاولة لعطف الأشياء مع بعضها البعض بتغير التعابير في وصفها لا أكثر ، فإنّ فهْمَنا للاطمئنان لا يكون بمجرد أن نغيّر التعبير فيه لنقول أنه الاستقرار بالنهاية على نوع معين من المعرفة فهذه الكلمات لم تغيّر في الأمر شيئاً كما أنها تتعرض لمشكلة أنها بحاجة إلى الاطمئنان في وصفها ، ونفس الأمر لو وصفنا الاطمئنان بأنه حالة اليقين أو الظن المُتاخم للعلم لقربه من صورة الانكشاف وبُعْدَه عن ساحة الجهل أو عدم المطابقة للواقع فهي مجرد توصيفات لفظية وتغيير في التعبيرات لا أكثر لذلك الشيء الذي اسمه الاطمئنان وقلة اعتبارها أنها من الصفات التجريدية وليست لها وعاء خارجي فهي كسابقتها واضحة للقارئ .

إذن إلى الآن لم نستطع أن نفهم لماذا يعتبر الاطمئنان أداة وطريقاً للمعرفة كما أننا لا نزال عالقين في مشكلة ارتباطه الشديد بالفكر الذي قادنا إلى تسلسل لم يثبت بطلانه بحسب التحليل الذي تم تقديمه ، كما أنّ استعمال تعريفات وتوصيفات أخرى للاطمئنان لم تنفع في تجاوز المشكلة المحيطة بهذا المفهوم ، كما أن التوصيفات لا تعدو كونها تعابيراً لفظية لا تنفع في معالجة الحالة المعرفية موضوع البحث .

يبدو أنّ بحثي عن مؤثرية الاطمئنان في صناعة المعرفة لا زال في بداية الطريق ، فأنا إلى الآن لم أبدأ وربما حتى أني إلى هنا لم أصغ أصل السؤال الخاص بالاطمئنان صياغة متقنة ، فهل السؤال الصحيح هو : لماذا الاطمئنان يؤدي الى المعرفة ؟ أم أن الصياغة الصحيحة هي : هل الاطمئنان يؤدي إلى المعرفة ؟ أم : كيف أن الاطمئنان يؤدي إلى المعرفة ؟ أم : متى يؤدي الاطمئنان إلى المعرفة ومتى لا يؤدي إليها ؟

انطلق بحثي بعيداً عن التركيز على هذه الاسئلة ، بدأت انطلاقته من مشكلة فهم الاطمئنان التي بدورها تحتاج إلى اطمئنان في نتيجتها النهائية ، ثم سرنا بهذه الدوامة عالقين بين طياتها من دون امتلاك وسيلة مُجدية للخروج .

لم يبق أمامي سوى تقديم أفكار محتملة لفهم الاطمئنان أذكرها بتفاوت في عرضها حسب أهميتها وحسب التأسيسات الفكرية في ورقات البحث .

لو انطلقنا من أنّ الاطمئنان هو أمر نفسي يتأثر بالحسّيات في صناعة المعرفة نكون عندها قد رجعنا إلى مناقشة الحس التي ذَكَرْتُها في ورقات بحث سابقة وهو مما لم تثبت صحته في تحصيل المعرفة كلها أو جزء مهم منها ، كما أنه لا ينفع في أن يكون وصفاً دقيقاً للأشياء ، أما التأسيس المعرفي بالأمثلة فهو إضافة الى مواجهته لمشكلة المثال الممنوع كذلك هو يمثل وصفاً ذاتياً منحصراً للأشياء ضمن تصوراتنا التي نرسمها عنها ، أما أن يكون الاطمئنان ناتجاً من معرفة مُتحصلة بالمقارنة المعرفية فهي ستواجه مشاكلاً مُتمثلة بالدراسات المُقارنة للأشياء ، وأما باعتبارها أنها تمثل انعكاساً لمنطق الوجدان الذي يحتويه داخلنا ـ على ما ذكره بعض الفلاسفة ـ فهو أمر يرجع بدوره إلى إعادة صياغة للاطمئنان لا أكثر وباعتبار الاحتمال هو المُحرك للأشياء لتحصيل اطمئنان معرفي لها وأننا نتبع قوة الاحتمال في ذلك فهو ليس تفسيراً لأن قوانين الاحتمال نفسها قد خضعت للاطمئنان في تحصيلها فالاطمئنان سابق مرتبة على الاحتمال وليس العكس.

لم يبق لي سوى أن أرى اطمئناني لنفسي أنا وأن أتكلم عن اطمئناني فقط في تحصيل معرفتي ، هذا ربما ما يمكن أن أجيده كي أتخلص من جزء من هذه المشكلة وأخرج ولو قدماً واحدة من هذه الرمال المعرفية المتحركة التي كلما تحركت لأخلص نفسي منها أجد اجزاء من تفكيري تغرق اكثر فأكثر .

أنا حين أكتب الآن أنا مطمئن من صحة ما أكتبه باللغة العربية وصحة وجود القلم في يدي وصحة وجودي وصحة وجود الورقة وصحة أني لا أزال حياً ولم أمت وصحة تنفسي وصحة نظري ، لكن الذي لم أتأكد منه هو صحة الأفكار التي أذكرها وأنها هل تمتلك درجة الصحة التي يمتلكها وجودي ؟ أنا أرى أن وجودي أكثر اطمئناناً لي من الأفكار التي أكتبها .

إن هذه الخطوة وإن تجاوزت بعض المشاكل في الاطمئنان إلاً أني احتجت لمعرفة الاطمئنان وتصوره من خلال المقارنة بين شيئين هما أفكاري ووجودي ، ورجحت أن تكون أفكاري أقل اطمئناناً من وجودي ، لم استطع في ورقات بحث سابقة تجاوز المشكلة الفكرية للبحث المُقارن ، لكن هذا الاختلاف بين الاطمئنان بوجودي وبين أفكاري صار مفروضا عليَّ ، لا أعرف لماذا هذا الفرض في داخلي لتحصيل التفاوت في الشدة والضعف إضافة الى التفاوت الرتبي بين وجودي وأفكاري ، إذن التفاوت أمر وجدته

متحققاً في داخلي ولا أعرف تفسيره ، إذا حاولت تفسيره فإني سأضطر الى قبول أشياء واطمئن لها في تفسير الاطمئنان .

يمكنني أن أغض النظر عن الدراسة المُقارنة ونتائجها وأتعامل مع التفاوت الدرجاتي للاطمئنان ، فما عرفته أنني أتعامل بشكل متفاوت مع الاطمئنان ، أتعامل مع هذا التفاوت كأمر مفروض بطريقة لا أعرف تفسيرها .

إنّ أهل المنطق العقلي يجيبون إجابات غير مقنعة لتفسير التفاوت بين افكاري ووجودي عند تفكيري فسيفسرون الأول علماً بديهياً ويعتبرون الثاني علماً نظرياً والنظري ليس بقوة البديهي كما يعرفه من درس المنطق ، إلاّ أن هذه الإجابات لا أعتبرها شافية ، فكل هذا وصف للمشكلة وهو مقترح علاج على مستوى السطح لم يدخل إلى الجوهر ، إذ أنّ التصنيف المذكور للعلم النظري والضروري أو البديهي أضافة إلى حاجة هذا التقسيم للاطمئنان به أولاً فهو يمثل وصفاً للتفاوت في الدرجة لا أكثر ، فإن أقصى ما فعله التقسيم المنطقي المذكور هو إعادة التوصيف بمصطلح خاص به .

هل الزمن ومؤثرية الزمن لهما علاقة بشكل ما مع الاطمئنان ؟ فوجودي أسبق زماناً من تعلمي للقراءة والكتابة وأسبق من تعلمي للأفكار ، إلاّ أنّ هذه الأسبقية أنا انتزعتها ثم اطمأننت لها بعد انتزاعها من أمرين يخصاني أنا لوحدي ـ من الناحية العلمية البحتة ـ هما وجودي وأفكاري لا

أكثر ، وهي محاولة للبحث عن تفسير فكانت الاسبقية الزمانية هي المؤثرة في نظري أنا لأن هذا ما وجدته بملاحظتي وما اطمأنّت به نفسي ، فأنا أجد نفسي أمام قوة كبيرة اسمها الاطمئنان لها قابلية على التمويه والاختفاء والخروج الفجائي وتغيير وجهات النظر وعطف الأمور كيفما تشاء لا يسبقها شيء إلاّ وسبقته ، فحتى لو قلت أنّ الحس سابق لها فهذه الفكرة تحتاج أن اطمئن لها حتى آخذ بها ولولا الاطمئنان لصارت هذه الفكرة بلا معنى أبداً .

إذن ماذا أفعل لأتعامل مع هذه الفكرة وهذا المفهوم الذي اسمه الاطمئنان الذي ضيق عليَّ الطرق ولم يبق لي إلاّ طريقاً واحداً للأخذ به وهو أن أقبله هكذا بلا أي شيء وكأني مع خصم عنيد يطلب مني أن أقبله هكذا من دون أي شيء وكأنه يريد أن يكون سيداً على المعرفة ولا يقبل أن يكون أحداً سيداً عليه لكني لا زلت أحاول أن أتحرك لمعرفة هذا الشيء الذي اسمه الاطمئنان الذي يحركني بحسب ما يريد ويرسم لي ملامح المعرفة كيفما يشاء ، لازلت أمتلك بعض المحاولات لفتح أسرار هذا الكائن العنيد .

أثناء حديثي مع بعض الاشخاص أجدهم يجزمون بأشياء أراها خاطئة متعلقة بأمور تخص الاجتماع أو الدين أو أمور علمية أو خلقية ، هم يطمئنون لما يذكرونه وأنا مطمئن مما أنا أعرفه أو أعلم به بأي وسيلة للمعرفة

والعلم ، وقد تبادر الى تفكيري أمر وهو أن هنالك شيء سابق للطمأنينة التي تحصل عندنا وهو علمنا بالشيء أولاً ـ بأي وسيلة للعلم ـ ثم تحصل عندنا الطمأنينة بذلك العلم ، فتوصلت إلى أن الطمأنينة متوقفة على العلم والعلم سابق لها وبالتالي تخلصت من مشكلة التداخل الشديد بين الفكر والطمأنينة ، فها أنا أحصل على شيء متخلصاً من هيمنة الطمأنينة ، لكن بعد تأمل بسيط نسبياً وجدت نفسي قد تعجلت النتيجة ، إذ أنّ السؤال الذي يمكن أن يقال هل أنّ العلم الذي حصلت عليه ابتداءً خالٍ عملياً فعلياً من الطمأنينة بشكل كامل ؟

إن العلم لابد أن يكون مُتضمناً للعلم به ـ هذا بحسب تفكيري ـ وإلاّ فكيف سيكون هنالك علماً بوجود العلم من دون الاطمئنان لذلك الوجود ، أو كذلك الاطمئنان بوجود الحواس التي نقلت لي ذلك العلم .

ولأترك العلم وأتأمل قليلاً بمرتبة من مراتب فقدان العلم ، لنفترض تلك المرتبة التي تسمى منطقياً بالشك أو الظن ، ربما للوهلة الأولى أجد نفسي أمام منطقة خالية من العلم وبالتالي فالاطمئنان ربما هو منتف في هذه المنطقة الفكرية ، إلاّ أنّ التأمل بدقة في هذه الفكرة يجعلنا نرى أن الاطمئنان لا يزال سيد الموقف ، فأنا حين شككت بشيء ما فأنا مطمئن أني شككت وإلاّ فكيف حكمت على نفسي بالشك لولا ذلك الاطمئنان بالشك ، إنّ أي محاولة لتجريد شكي عن الاطمئنان سترجع سلباً على نفس الشك .

لأضعّف الدرجة العلمية قليلاً وآخذ حالة الوهم التي يعتبرونها منطقياً أقل من الشك من جهة العلم وأعلى منه من جهة انتفاءه ، فهل سيبقى الاطمئنان سيد الموقف ؟

لأتأمل قليلاً بفكرة (الاطمئنان بالوهم) فهل هذه الفكرة سليمة ؟ هل يمكن أن تقع عندي حالة من الاطمئنان بالوهم ؟ كيف لي أن أتصور الاطمئنان بالوهم ؟ وهل يمكن أن استعمل نفس الأسلوب الذي استعملته بالوهم ؟ هل يمكن أن اقول أنني مطمئن بوهمي من الناحية النظرية فلا أرى محذوراً في ذلك ، لا أرى محذورا من أن اقول أنني اشعر بالاطمئنان اتجاه هذه الحالة ، هل يمكن أن يكون الوهم مجتمعاً مع الاطمئنان عندي ؟

لأحلل الأمر بشيء من التأمل وأنطلق من فكرة أن الوهم هو حالة من اللا استقرار ، أي أنّه مرتكز على اللا طمأنينة يفرض وجوده علينا مباشرة بلا مقدمات ، فنحن حين نتوهم لا نختار ذلك التوهم ، إنه حالة تفرض نفسها علينا ربما هناك مسوغ لذلك الفرض ، لكن الشك كذلك أيضاً فلماذا يكون الوهم حالة تفرض وجودها بخلاف الشك ؟ الشك يفرض وجوده أيضاً ، الاختلاف فقط في المعطيات العلمية الابتدائية .

إلى الآن لم أجد حالة من الاختلاف الجوهري بين الوهم والشك ، فكلاهما شيء واحد تقريباً ـ هذا التقريب بحسب المعطيات ـ على ما ذكرته قبل قليل .

إنّ ما جذبني اتجاه الوهم كبصيص أمل إلى شيء فكري متجرد عن الطمأنينة ومتخلص من تلك الرمال المتحركة الفكرية التي يوجدها هو أنّ الوهم ليس فيه أي حالة اطمئنان أبداً ، إنه مزيج من الخوف والاضطراب واللا استقرار ، هذه الأمور ربما جذبتني إلى شيء اسمه الوهم لا طمأنينة فيه ، إلاّ أني لم أجد أن هنالك شيء مميز في الوهم سوى مقدار المعطيات العلمية المتوفرة فيه .

إنّ هذا الخوف واللا استقرار والاضطراب الذي يرافق اللا اطمئنان لم يأت من الوهم نفسه بل جاء من متعلق الوهم ، أي أن توهم الإنسان ليس دائما يولد حالة من اللا استقرار وفقدان الطمأنينة بل إن المتعلق هو الذي يولد هذه الحالة ، فإذا كان الوهم اتجاه وجود الخطر أو الموت صار الوهم ذا تأثير معين ، وبوجود متعلق كالحياة والامل والسعادة صار له تأثير آخر .

إذن الأمر لم يختلف بين الوهم والشك من حيث العلاقة مع الطمأنينة أي أن الوهم ليس شيئا يتمكن من زعزعة عرش الطمأنينة ، إنه ليس سوى قيمة علمية تخضع للطمأنينة .

بقي أمر بخصوص الوهم وهو كيف أنه يخضع للطمأنينة ؟ هل يمكن أن أطمئنّ لوهمي ؟ لا أملك جواباً واضحاً لهذا السؤال ، ما معنى أن أطمئن لوهمي ؟ هل أطمئن إذا لم أستطع أن أصيغ عبارة استفهامية كتبتها في

اللغة الروسية ، أو أن أتكلم كلاماً غير مباشر في اللغة الفرنسية ؟ هل أستطيع أن أطمئن في أي علم آخر من هذه العلوم الهائلة في هذا الكون ؟

من الواضح للقارئ أنه سيطلب مني كي أطمئن لشيء ما أن أكون عالما بذلك الشيء ، فحتى أتأكد من صحة استفهامي في اللغة الروسية أحتاج إلى متكلم بها أو أستاذ أو كتاب أو أي شيء آخر أستند عليه يجعلني مطمئّناً ، وعدم وجود مثل هذه المستندات ينفي ذلك الشيء الذي اسمه الاطمئنان ويولد بدلاً عنه الوهم بقدرتي على صياغات علمية معتمدة في أي مجال .

إذن تلك الحالة من اللا استقرار يمكن أن أسميها التوهم بذلك الشيء وبالتالي استطعت أن اتفهم ولو بشيء من التفهم وجود شيء لا اطمئناني يحصل بانتفاء العلم .

إذن استطعت أن احصل على منطقة صلبة وركيكة اتكئ عليها ، أما كونها صلبة فلأنها قضت على ما يبدو على تلك الرمال المتحركة للاطمئنان ، وركيكة كونها استبدلت صلابة الاطمئنان في العلوم بركاكة التوهم فيها للتخلص من مشكلة الرمال الفكرية المتحركة للاطمئنان ، وهذا واضح للمتأمل .

المهم أن المشكلة تبدو أنها قد حُلت بوجود التوهم في حياتنا وقد حصلنا على شيء لا اطمئنان فيه .

لكن هل ما توصلنا إليه يمكن الاطمئنان إليه ؟

إن هذه النتيجة تحتاج إلى اطمئنان في الحكم عليها أيضاً .

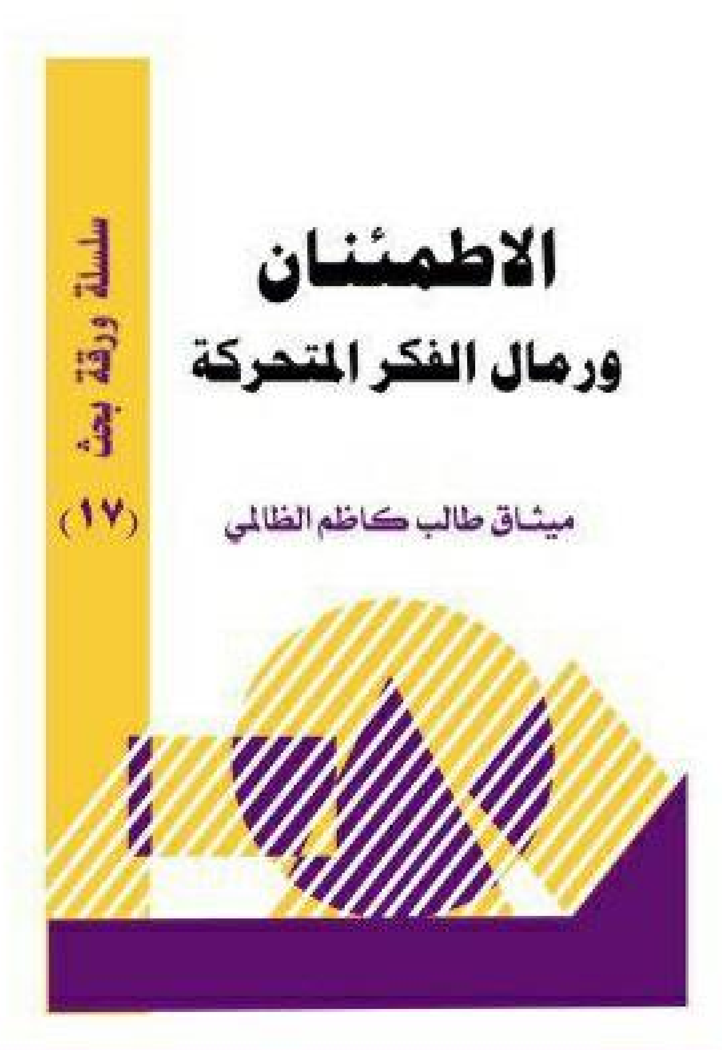
ميثاق طالب كاظم الظالمي

٢٥/ذي القعدة / ١٤٣٨ هـ

٢٠١٧/٨/١٨

صدر للمؤلف

١. اسم الزمان العلمي في المشتق الاصولي .
٢. قواعد في المستقبل المعنوي .
٣. قواعد في المستقبل الفكري .
٤. بين التوهم والتعقل ـ فلاسفة الأديان في الميزان .
٥. رحيق الحكمة .
٦. سلسلة ورقة بحث (١) : فكرة تهذيب المنهج (العلمي - القرآني) / البحث (الفيزيائي ـ القرآني) نموذجاً .
٧. سلسلة ورقة بحث (٢) : ضرورة الموقع العلمي للظن في معادلة المعرفة .
٨. سلسلة ورقة بحث (٣) : دحض المعايير الطبيعية في نظرتها للفلسفة الأخلاقية .
٩. سلسلة ورقة بحث (٤) : هل يمكن أن تكون بعض فروع الدين اصوله .
١٠. سلسلة ورقة بحث (٥) : ديناميكية العقلين .
١١. سلسلة ورقة بحث (٦) : المعنى الحقيقي للماهية وبطلان دعوى أصالتها مع الوجود .
١٢. سلسلة ورقة بحث (٧) : التجربة المعرفية المتعالية .
١٣. سلسلة ورقة بحث (٨) : أساسيات علم منطق اللامنطق .
١٤. سلسلة ورقة بحث (٩) : لو كان الله مجرد فكرة .
١٥. سلسلة ورقة بحث (١٠) : المثال الممنوع .
١٦. سلسلة ورقة بحث (١١) : البرهان على عدم ثبوت اسلوبنا في تفسير القرآن بالقرآن
١٧. سلسلة ورقة بحث (١٢) : العقبات الفكرية في البحث المقارن .
١٨. سلسلة ورقة بحث (١٣) : صدمة الفكر في البحث عن اللامحسوس .
١٩. سلسلة ورقة بحث (١٤) : الحالة المعرفية الثالثة .
٢٠. سلسلة ورقة بحث (١٥) : من يمسك الطائرة الورقية .
٢١. سلسلة ورقة بحث (١٦) : لنتسلى قليلاً مع فلسفة البساطة .
٢٢. سلسلة ورقة بحث (١٧) : الاطمئنان ورمال الفكر المتحركة .



أثناء حديثي مع بعض الاشخاص أجدهم يجزمون بأشياء أراها خاطئة متعلقة بأمور تخص الاجتماع أو الدين أو أمور علمية أو خلقية ، هم يطمأنون لما يذكرونه وأنا مطمئن مما أنا أعرفه أو أعلم به بأي وسيلة للمعرفة والعلم . وقد تبادر الى تفكيري أمر وهو أن هنالك شيء سابق للطمأنينة التي تحصل عندنا وهو علمنا بالشيء أولاً ـ بأي وسيلة للعلم ـ ثم تحصل عندنا الطمأنينة بذلك العلم . لكن السؤال : هل هذا التبادر صحيح وما الدليل عليه ؟

للاستفسار
quran.wisdom2016@gmail.com
07800378214 - 07822723131